

رياح؟ ويعضى بلال يصدع قلب الظلام، بشهادتي الاسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم يحيمل بالصلاة والفلاح، ثم يمد التكبير في تعديد، فيختم بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله!

ويحسب بلال أن صوته لم ينفذ الى القلوب، فلم تتجانف عن مضاجعها الجنوب، فيثوب بالقوم: الصلاة خير من النوم^(١) يتهلل وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لصوت الحق مدروباً في أعقاب الباطل، ويسم لصوت الحق عالياً طليقاً يملأ ما بين الأرض والسماء، والمشرق والمغرب. يسم حين يسمع دعوة الحق في قلب الجزيرة العربية على لسان عبد حبشي. وهل في شرعة الاسلام عبد وحر؟ وهل في سنة محمد عربي وحبشي؟ وتنبعث في كل أذن من هذا الصوت نفمة، وفي كل قلب من هذا النور إشراق. فيهب الأصحاب من مراقدهم، تقشعر جلودهم، وتطمئن قلوبهم. فتستيقظ كل دار يأهبة الصلاة من الرجال والنساء والولدان والولائد

وينزل بلال فيقف يباب الحجر النبوية قائلاً: «حى على الصلاة، حى على الفلاح. الصلاة يا رسول الله^(٢)»

ويسفر النهار وتثال الجوع إلى المسجد فانظر من ترى: يخرج نفر إلى المسجد من خوخت في دورهم، فهذا الآدم الرملة عظيم العينين ذو البطن سيف الله الغالب على بن أبي طالب، يخرج من حجرة فاطمة. وهذا الآدم الطويل الجسم الأصلع عمر الفاورق، وهذا الأسمر الرقيق البشرة ضخم المنكبين كثير شعر الرأس عظيم اللحية عثمان ذو النورين، والصديق كان في السخ^(٣) هذه الليلة فيقدم مسرعاً قتراه أبيض نحيفاً ممروق الوجه غائر العينين خفيف العارضين أجنباً^(٤). ويقبل من دور بني زهرة بجانب المسجد ثلاثة: أحدهم قصير دحداح ذو هامة عظيمة، شثن الأصابع، كثير الشعر يخضب بالسواد، هو سعد بن مالك بن أبي وقاص، والثاني آدم نحيف قصير له شعر يبلغ رقبته، يلبس ثوباً ناصع البياض، تضوع منه ريح

(١) زاد بلال هذه الكلمة بعد الأذان فأقره عليها الرسول

(٢) طبقات ابن سعد

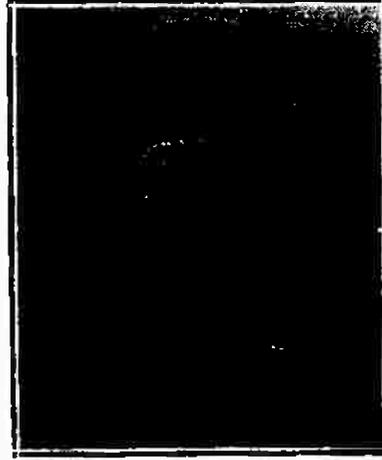
(٣) السخ حلة في المدينة على ميل من المسجد كان لأبي بكر دار بها

(٤) حلية الخلفاء الراشدين من الطبري، وبقية الصحابة من الأصابة

وطبقات ابن سعد

بلال يؤذن

للدكتور عبد الوهاب عزام



كاد الليل ينسلخ عن النهار، وبشّرت بالصبح أنفاس الأسحار، والدجى مهود وسمان، سيفزعه عما قيل ذنب السرحان^(١) والناس هاجدون وكأهم أيقاظ ينتظرون صلاة الصبح؛ وكان آذانهم مصيخة تلقاء المسجد، تحين دعاء المؤذن،

وكان قلوبهم لبر الغناطيس ترصد قطبها، وتتجه إلى إمامها، والأمم هاجد يرعاه ربه، تنام ميناها ولا ينام قلبه. وملاء الأرض والسماء السكينة والسلام

وسرى في أحشاء الليل سار كطيف الخيال، أتخذ من الليل جلباباً، وطوى من الصبح قلباً وجانبا، «آدم شديد الأدمة، نحيف طوال أجنباً، له شعر كثير، خفيف العارضين، به شحط كثير»^(٢) تحمل بجمته الشمطاء، تباشير الصباح الوضاء ويرتق جدار المجلس، فيجلس مقلباً وجهه في السماء، ثم

ينتنفص قائماً، فيضع سبائتيه في أذنيه، فيمثم في حواشي الظلماء، صوتاً يججلجل في الأرجاء: الله أكبر الله أكبر - الله أكبر الله أكبر! أرى فلول الظلام مذهودة تلوذ بالباطل المهزم، أم ترى الباطل مذعوراً يلتف في تلك الظلم؟ ذلك النور الثبثق من الأفق الشرق بسمة الفجر الصادق لهذا الصوت الآسهي، بل ذلك النور الوضاء، استجابة النهار لهذا النداء. فما الفجر إلا صوت نوراني، يتلأأ بنفثات ذلك النور الصوتي؛ ليت شعري أيهما الصباح، وأيها أذان بلال بن

(١) ذنب السرحان الفجر الكاذب وهو الضوء الذي يظهر في الأفق

مستطيلاً قبل الفجر، وكان بلال يبتق الفجر بأذانه

(٢) طبقات ابن سعد

الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور »

هذه جماعة يحصها الله ليورثها أرضه ، ويملأها لتقوم بين الناس بدله . وهذا الصف من العباد يجمع خلفاء الأرض وأمرائها وولاتها وقضاةها ومعلميها وقوادها وجندها ، وتلك الشريعة من الزهاد هم ورثة العروش والسيجان عما قليل ، الذين يقسم الله رزقه بأيديهم ، ويصرف حكمه في الأرض بالسنتهم . جماعة تضمهم جُدُرُ المسجد اليوم ولايسمهم العالم غداً ، جماعة في أرض فقيرة بين لابتين^(١) ، سينتشرون بين الشرقين والمغربين ، وستجف الأرض بحملاتهم ، وتقرّ بعلمهم ، وتضيء بإيمانهم

قضيت الصلاة ، وانتشر المصلون

لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده . قد فتحت بهذه الجماعة الأقطار ، وعمرت بهم الأمصار ، هذا عمر في الشام قد أزال عنها سلطان الروم ، ثم جاءها ليريم المهود ، ويتفقد الرعية ؛ وهذا بلال في جيش المجاهدين غازياً ؛ ينظر عمر الى بلال يود أن يسمع أذانه ، ويهاب أن يستمع لمؤذن رسول الله . ويقول الناس لعمر : لو أمرت بلالاً أن يؤذن ! ويقترح عمر على بلال الأذان ، فينهض الشيخ ابن السمين تحت أعباء السنين ، فيدوى في الأرجاء : الله أكبر ، الله أكبر ...^(٢) لقد كان أذان الشام تصديق أذان المدينة أجل أجل لقد صدق الله وعده ! !

ولكن انظر الى عمر ، ألا تراه ينشج ؟ ألا ترى دموعه تبلّ لحينه ؟ ألا ترى القوم في بكاء ونحيب ؟ ماداهم ؟ ما أبكاهم ؟ لقد نصرهم الله ومكّن لهم في الأرض ، وأغنهم وأعزهم . فما دهام وما أبكاهم ؟ يكون إذ رأوا المؤذن ولم يروا الامام ! يكون إذ سمعوا مؤذن رسول الله ، ثم نظروا فلم يجدوا رسول الله !

عبد الوهاب عزام

(١) اللابة الحرة ، والمدينة بين حرتين شرقية وغربية

(٢) كان هذا في السنة الثامنة عشرة من الهجرة

الطيب ، يمشى في وقار وسمت ، هو عبد الله بن مسعود ، والثالث ضخم طويل شديد الأدمة هو المقداد بن الأسود . ويُقبل آخران : فهذا الطويل الجسيم خالد بن الوليد ، وهذا القصير الأبلج الأدهج عمرو بن العاص ، وفي أثرهما رجل جميل عظيم الهامة مكتحل يخطر في مشيته هو معاوية بن أبي سفيان ، وبجانبه رجل نحيف طوال معروق الوجه خفيف اللحية اجنأ أرم الثنيتين هو أبو عبيدة ابن الجراح . ويقبل من ناحية الحرة الشرقية رجلان : سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج ؛ ويأتي رجل طويل نحيف كثير الشعر عليه سيبا الحزن هو سلمان الفارسي ، ووراءه رجل ربة أحر شديد الحرة كثير شعر الرأس ، يخبض بالحناء هو صهيب الرومي ؛ وانظر بين الجمع طلحة والزبير وأبا موسى الأشعري وأبا أيوب الأنصاري . ويأتي بنو الصحابة ، فهذا التلام الطويل الأحمر عبد الله بن عمر ، وهذا الغلام الطويل الأبيض المشرب بالصخرة الجسيم الرسيم الصبيح الوجه عبد الله ابن عباس ، وهذا الصبي الذي يشبه أبا بكر عبد الله بن الزبير . ويخرج رسول الله صلوات الله عليه ، فيقيم بلال الصلاة : الله أكبر الله أكبر الخ ، فيسوى الرسول الصفوف ، ويسدّ الفُرج فيها ويكبر فيكبرون . ويذهب هذا التكبير نعمة متنسقة بين ضوضاء العالم وجلبته ، ودعوة للحق بين أكاذيبه وأباطيله . يذهب هذا التكبير في الأرجاء طمأنينة لقلوب ، ورعدة لقلوب ، ورجاء لقوم ، وخوقاً لآخرين ، يبشر الضمفاء والمظلومين بملكوت الله في الأرض ، وينذر الجبارين والظالمين بالقصاص العادل . إنما مزق شمل الظالمين هذه الصفوف لا صفوف القتال ، وإنما زلزل عروش الجبارين ذلك التكبير لا وقع النبيل

ويقراً الرسول في الركعة الأولى آيات من سورة إنور منها : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »

ويقراً في الركعة الثانية آيات من سورة الحج منها : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا